نماذج من توظيف الأسطورة الإغريقية واستلهامها في شعر سميح القاسم

د. برهان أبو عسلي*

الملخَّصُ

كانت الأسطورة مصدر إلهام للشعراء والكُتَّاب منذ العصور الأدبية القديمة ولا تزال حتى يومنا هذا. وسميح القاسم واحد من هؤلاء الشعراء الذين استلهموا الأسطورة في شعره ووظَّفها توظيفاً ينسجم مع رؤيته الشعرية والإنسانية والنضالية.

وفي هذا البحث سنتوقف عند توظيف الأسطورة الإغريقية واستلهامها في شعر سميح القاسم مستهدفين بذلك الوصول إلى أبعادها الرمزية والدلالية، والكشف عن إيحاءاتها الجمالية.

الكلمات المفتاحية: توظيف الأسطورة الإغريقية واستلهامها، سميح القاسم، أنتيجونا، نايوبي، يوليسيز، سيزيف.

* أستاذ مساعد، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Patterns of employing The Greek Legend and its inspiration in Samih Al-Qasim′s poetry

Dr. Burhan Abou Asali**

Abstract

The Legend was a source of inspiration for many poets and writers from the ancient literature ages and still continue until these days. Samih Al-Qasim one of the poets who inspired the legend in his poetry and employed it to fit in with his humanity, poetic and struggling vision.
In this research, we will focus on employing The Greek Legend and its inspiration in Samih Al-Qasim poetry, which aiming to reach to its symbolic and semantic dimensions, and to reveal the aesthetic connotations.

Key words: Employing The Greek Legend and its inspiration, Samih Al-Qasim, Antigone, Niobe, Odysseus, Sisyphus.

** Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language

المقدِّمة:

كانت الأساطير منبعاً ثراً لكثير من الشعراء والكُتَّاب لما تتضمَّنُه من طاقات فكرية وتاريخية وثقافية ورمزية[1]. وقد تعددت تفسيراتها وتعريفاتها لغوياً واصطلاحياً[2]. وهي في كلِّ ذلك لا تخرج عن كونها حصيلة تجربة الإنسان في الحياة، وتعبيراً عن تفسيره ظواهر الكون، أو فلسفته في الحياة، أو الإجابة عن تساؤلاته الكثيرة المتعلِّقة بسرِّ وجوده ومصيره ووظيفته[3].

ولأنَّ الأساطير نشأت نشأة شفاهية، وكانت تنتقل من إنسان إلى آخر، أو من مجتمع إلى آخر، أو من مكان إلى آخر، فإنَّها كانت تتغير وتتبدل عبر هذا الانتقال الشفوي، وتتلون بألوان البشر وثقافاتهم ومعتقداتهم وتفكيرهم. ولا شكَّ أنَّ كثيراً من هذه الأساطير كان لها أصل تاريخي ومكاني. لكنَّ تعاقب الأزمان وانتقالها من مكان إلى آخر أفقدها أصولها الأولى، فتطبَّعت بطوابع المكان الأخير الذي وصلت إليه وخرجت منه وانتسبت إليه مرويَّة أو مكتوبة أو موثَّقة. وهي في كلِّ ذلك حملت من كلِّ مجتمع وجدت فيه شيئاً من فكره وبيئته وثقافته وفلسفته ومعتقداته بحيث امتزج كلُّ ذلك في تشكيل هذه الأساطير كما لو أنَّها من صنع البشر جميعاً.

---

[1] – انظر إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي (القاهرة)، ط3، د.ت.، ص 222 وما بعدها.

[2] – شغلت الأسطورة اهتمام كثير من الفلاسفة، وآباء الكنيسة، والنقاد والباحثين في علوم الأنثربولوجيا (علم الإنسان)، والأثنولوجيا (علم اللاهوت)، وعلماء اللغات المقارنة، والباحثين في تاريخ الديانات، وعلماء الاجتماع، وعلماء التحليل النفسي ودارسي الآداب الكلاسيكية. وكان لكلٍّ منهم وجهة نظره وتفسيره وتعريفه الخاص للأسطورة وذلك تبعاً لسماتها، ومضمونها، وأصولها، ووظيفتها. انظر في هذا على سبيل المثال عبد العزيز، كارم محمود: أساطير العالم القديم، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1، 2007، ص 13 وما بعدها، وانظر كذلك المصري، حسين مجيب: الأسطورة بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2000، ص 5 وما بعدها.

[3] – انظر في هذا أمين، أحمد، ومحمود، زكي نجيب: قصة الأدب في العالم، (الجزء الأول: في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1943، ص 113 وما بعدها.

والأساطير الإغريقية واحدة من هذه الأساطير التي خلقها الإنسان وأوجدها وتعايش معها فكراً ومعتقداً. وكانت هذه الأساطير مصدر إلهام لكثير من الشعراء والأدباء ابتداءً من هوميروس ومروراً بأسخولوس، وسوفوكليس، ويوريبيدس[4]، ومن جاء بعدهم من الشعراء اللاتين أمثال فرجيل، وهوراس، وأوفيد، وسينيكا، وحتى وقتنا الحاضر.

لقد وجد هؤلاء الشعراء والأدباء في الأساطير غنى كبيراً من المعاني والأفكار، وكثيراً من الأسئلة المتعلقة بجوهر الإنسان ووجوده ومصيره في هذا الكون، وما تضمَّنته من تجربة الإنسان وفلسفته عبر العصور. ووجدوا فيها مجالاً خصباً لإبداء آرائهم ورؤيتهم في الحياة وفلسفتهم الخاصة من خلال تناولها ومعالجتها وقراءتها قراءة جديدة من خلال العصر الذي عاشوا فيه وانتموا إليه، أو من خلال التوسُّل بها أو استلهامها في الموضوعات والقضايا التي تناولوها في أعمالهم الإبداعية.

وقد وجد الشعراء العرب، ولا سيما شعراء الحداثة – أمثال بدر شاكر السياب، وأدونيس، وسميح القاسم، ومحمود درويش وغيرهم – في الأساطير معيناً لا ينضب من الغنى المعرفي والفكري والفلسفي، فتوسَّلوا بها لنقل أفكارهم، وما كانوا يرمون إليه، واستوحوا منها كثيراً من المعاني والرموز، ووظَّفوها توظيفاً ينمُّ على قراءتهم الواعية المعمَّقة لها وإدراك أبعادها وما تحمله من رموز ودلالات كثيرة.

الأسطورة الإغريقية في شعر سميح القاسم:

كانت الأسطورة عامة، والإغريقية خاصة، واحدة من الوسائل التي اعتمدها سميح القاسم في شعره. وقد جاء توظيفها واستلهامها بما يتلاءم والمواضيع والقضايا التي تناولها في شعره، ومع ما يتلاءم مع رؤيته الفكرية والفلسفية والشعرية. والمتابع لإنتاج الشاعر يلاحظ هذا الاحتفاء الكبير بالأسطورة الإغريقية ابتداءً من ديوانه "أغاني الدروب" عام

[4] – يشير الدكتور أحمد عتمان إلى أهمية الأسطورة ووظيفتها في الشعر الإغريقي، وأنَّها لا تقلُّ شأناً عن صناعة الشعر. انظر هوميروس: الإلياذة، ترجمة أحمد عتمان وزملاؤه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص13. انظر كذلك أمين، أحمد، ومحمود، زكي نجيب: قصة الأدب في العالم، المرجع السابق، ص 123 وما بعدها.

1964 وانتهاء بكولاج 2 عام 2009[5]. وقد بلغت الأساطير الإغريقية التي تضمَّنتها قصائده نحو اثنتي عشرة أسطورة، وهي: (أنتيجونا، إسكندرون، سيزيف، يوليسيز، نايوبي، صائد الأسماك اليوناني، إيكاروس، أخيلُّووس، بروموثيوس، أتلانتس، هيرمافروديتُّوس، أفروديت).

ومما يلاحظ أنّ هذه الأساطير جاءت بأشكال فنيَّة مختلفة عند سميح القاسم. وهي لا تخرج عن ثلاثة أشكال:

أولاً: الأساطير التي جاءت عنواناً رئيسياً في القصيدة: وهي خمس أساطير (أنتيجونا، إسكندرون، نايوبي، أتلانتس، هيرمافروديتُّوس).

عمد الشاعر في هذه القصائد إلى الاستخدام الكامل للأسطورة والتوسع في معانيها ودلالاتها، واستلهامها، ومقاربتها من الواقع والقضايا التي يتناولها. والواقع هنا فلسطين، وشعب فلسطين، والإنسان الفلسطيني بكلِّ أحواله ومعاناته، وصراعه الدائم مع العدو الصهيوني، المغتصب أرضه ووطنه، والمتمادي في عدوانيته وغطرسته وفجوره. والشاعر في كلِّ ذلك يحاول برؤيته الإبداعية تلمُّس هذا الواقع وقراءته وفقاً لمعايشته وتجاربه وحسِّه الوطني المقاوم. وكمثال على هذ النوع نتوقف عند أسطورتي"أنتيجونا" و"نايوبي".

1– أسطورة "أنتيجونا":

يطالعنا الشاعر في أولى قصائده التي حملت عنوان الأسطورة؛ وهي قصيدة "أنتيجونا" التي نشرها عام 1964 في ديوانه "أغاني الدروب". وأسطورة "أنتيجونا" في التراث الإغريقي تُمثِّل رمز التضحية والوفاء لأبيها أوديب. وهي التي رافقته في رحلة المنفى

[5] – بدأ إنتاج سميح القاسم الشعري منذ عام 1958 بظهور ديوانه الأول" مواكب الشمس" وانتهى بنشر " كولاج 5: ضجيج النهارات حولي" عام 2015. انظر موقع القدس العربي الإلكتروني:https://www.alquds.co.uk /. والـ " كولاج collage فنُّ القصِّ واللصق، هو تجميع أشكال ومصورات ليُكَوِّن منها بعد قصها ولصقها جنباً إلى جنب شكل عام أو شكل فني". عكاشة، ثروت، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، 1990، ص 92.

بعد أن حكمت عليه مدينة ثيبة بذلك[6]، عقوبة على اقترافه إثمين في حقِّ أبيه لايوس، وأمه جوكاستا. وأوديب بريء من كليهما. وفي منفاه تصبح أنتيجونا عيني أبيها، وتؤنس وحدته وتشاركه مصيره، وظلت إلى جانبه حتى مات في كولونا.[7]

وقد وجد سميح القاسم في هذه الأسطورة بارقة أمل لكلِّ من فقد ثقته بنفسه، وبأنَّ الغد سيكون أفضل من اليوم. وأنَّ على الإنسان ألا ييأس، ولا يقنط، بل عليه أن يستفيد من كلِّ طاقاته الكامنة فيه.

في هذه القصيدة يرصد سميح القاسم الواقع المرير الذي يعيشه الشعب الفلسطيني المفتقر إلى كلِّ وسائل المواجهة المكافِئة لقوة العدو الصهيوني. ويرى أنَّ أجدى وسائل المقاومة في هذه المرحلة تكمن في التحمل والصبر والتشبث بالأرض، وأنَّ هذه الأرض لن تكون إلَّا لأصحابها مهما طال الزمن. وأنَّ المظلوم المعذَّب عليه ألَّا يفقد الأمل في يوم يُحقِّقُ فيه ما حُرِمَه من وطن وأمان.

تُمثِّلُ قصيدة "أنتيجونا" رمزاً قوياً للأمل والغد الأفضل. وفيها يدعو الشاعر إلى الثبات والعزيمة، وأنَّ الإنسان مهما فقد، فإنَّه لا يزال يملك الكثير ليُقدِّمَه في الحياة، وفي صراعه مع أعدائه:

خطوه.. ثِنْتانِ .. ثلاث ..
أقدِمْ .. أقدِمْ !
يا قربانَ الآلهة العمياء

---

[6] – فيما يتعلَّق بنفي أوديب من ثيبة يحسن الرجوع إلى مسرحيتي "أويديبوس ملكاً" و" أويديبوس في كولونا" وقراءة الصفحات التي أتت على ذكر هذا الموضوع بتمعن. إنَّ أوديب لم ينفِ نفسه من المدينة، مع أنَّه رغب في النفي وطلبه، بل إنَّ المدينة – كما يصرِّح هو نفسه في الصفحة 277 من مسرحية "أويديبوس في كولونا"– أخرجته بالقوة والعنف. انظر سوفوكليس: من الأدب التمثيلي اليوناني، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981، ص 200، 249، 253، 261، 266، 273، 276 وما بعدها، 284 وما بعدها، 287، 291، 213.

[7] – انظر أسطورة أنتيجونا في: عثمان، سهيل، والأصفر، عبد الرزاق: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982، ص 88 وما بعدها.

يا كبشَ فداء
في مذبحِ شهواتِ العصرِ المظلم
خطوه .. ثِنْتانِ .. ثلاث..
زندي في زندك
نجتاز الدرب الملتاث !
يا أبتاه!
ما زالت في وجهك عينان
في أرضك ما زالت قدمان
فاضرب عبر الليلِ
بِأشأمِ كارثةٍ في تاريخ الإنسان
عبرَ الليل.. لنخلقَ فجر حياه!
يا أبتاه !
إن تَسْمُلْ عينيك زبانيةُ الأحزان
فأنا ملءُ يديك
مِسْرَجَةٌ تشربُ من زيت الإيمان
وغَداً يا أبتاه أُعيد إليك
قَسَماً يا أبتاه أُعيد إليك
ما سلبتك خطايا القرصان
قسماً يا أبتاه
باسم الله .. و باسم الإنسان
خطوه .. ثِنْتانِ .. ثلاث..
أقدِمْ .. أقدِمْ !"[8]

[8] – ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، 1973، ص 66 وما بعدها.

إنَّ الشعب الذي سُلبت حقوقه يشبه أوديب الذي فقد البصر، لكنه يملك البصيرة، يملك في داخله الإرادة التي تعوضه عما فقده. فإذا فقد عينيه، فإنَّ قدميه لا تزالان بخير، وبإمكانه الوقوف عليهما والسير بهما إلى الأمام. وهناك من يعينه ويرشده على البقاء ويقوده لإكمال مسيرته في الحياة. فإذا أُصيب الشعب الفلسطيني بالصدمة وفقد بصره وأحسَّ بالعجز لما يجري على أرضه كما فقد أوديب بصره حين عرف الحقيقة، فإنَّ أنتيجونا – الشاعر هنا لم يفقد الأمل، وعيناه تريان وتبصران، فإنَّه هو الذي سيقود هذا الشعب إلى طريق الخلاص، بل يمدُّه بالعزيمة والأمل.

فأنتيجونا هي رمز الأمل في الأسطورة، والشاعر هنا هو رمز لإيقاظ الهمم والعزيمة والأمل لدى من فقد الثبات أو أحسَّ بالتخاذل والضعف. بل الشاعر سيدرِّبه كيف يستخدم قدميه ويمشي في طريق النضال حتى لو مات الشاعر في سبيل أن يحيا الآخرون. وما عليك أيها الإنسان إلَّا أن تُقْدِمَ. وفي عبارة " أقدم . أقدم" التي تكررت مرتين دلالة على إبعاد الخوف واستعادة الثقة بالنفس.

في حديثها عن هذه الأسطورة وتوظيفها في شعر سميح القاسم تقول الكاتبة مروى فتحي منصور إنَّ العنوان "يحيلنا إلى أسطورة أوديب، فهي ابنته، وجاءت القصيدة على لسانها، وهي ترسم الدرب لأوديب العصر"[9]. وأنَّ أنتيجونا كانت "عيني والدها اللتين يبصر بهما، كان الشاعر العصا التي يتوكأ عليها شعبه الفلسطيني والعربي، فهي تُمثِّل ذاته، الواعية المبصرة بمصير هذه الأمة، وهي المتمردة الثائرة، الوفية لوطنها، المدافعة عنه من الاحتلال الغاشم، ومن المخاطر التي تحيط به"[10]. وأنَّ الشاعر يقسم أنَّه سيعيد للشعب الفلسطيني بصره الذي سلبه إياه العدو المحتل. كما أعادته أنتيجونا لأبيها أوديب. وأنَّ

[9] – منصور، مروى فتحي: التناص الأسطوري في شعر سميح القاسم/ نماذج مختارة من شعره، الموقع الإلكتروني: موقع الوديان: http://wdian.org/.

[10] – المرجع السابق نفسه.

"الإبصار الذي يتحقق لأوديب من خلال أنتيجونا ... هو رؤية الشاعر وبصيرته التي ستجلب الحرية للشعب الفلسطيني"[11].

إنَّ أوديب يساوي الوطن فلسطين في الظلم الذي وقع عليه، و'إنَّ أنتيجونا في تضحيتها ووفائها لأبيها ومدِّه بالبصر تعادل ذات الشاعر بالنسبة لوطنه فلسطين وشعبه.[12]

ومن هنا يتبيَّنُ لنا أنَّ سميح القاسم حين وظَّف أسطورة " أنتيجونا" واستلهمها في قصيدته كان واعياً ومدركاً أبعادها ودلالاتها الرمزية، وما توحي إليه، ليصل إلى الغاية التي يريدها من إنسان وطنه في مواجهة عدوه الذي لم يشهد تاريخ الإنسانية مثيلاً له.

ويلاحظ القارئ لجوء الشاعر في هذه القصيدة إلى تقنية العتبات النصيَّة؛ فبعد العنوان مباشرة عرَّف بأنتيجونا قائلاً: "ابنة أوديب– الملك المنكوب– التي رافقته في رحلة العذاب.. حتى النهاية!" وفي الهامش أكمل التعريف بأنتيجونا حين قال: " أنتيجونا هي بطلة المسرحي الإغريقي سوفوكليس، التي تُمثِّلُ رمز الوفاء للأب. والتضحية في سبيله. ظلَّت تقود خطوات أبيها الأعمى، الملك أوديب، إلى أن حُكمَ عليها بالإعدام.."[13]. ولا يخفى على المتلقي أهمية هذه العتبات النصيَّة التي تجعل القارئ مهيَّأً مسبقاً لقراءة ما سيأتي. فالعنوان الذي حمل عنوان الأسطورة كان مثيراً بالنسبة للقارئ لأنَّه جديد على ثقافته، وتعريف الشاعر بأنتيجونا بعد العنوان مباشرة، وفي الهامش جعل القارئ مهيَّأً ومتحفزاً لقراءة شيءٍ جديد. والتعرف على ما سيأتي، وكيف سيتعامل الشاعر مع هذا الجديد وما أهميته. وهذا ما قصده الشاعر وأراد لمتلقيه أن يصاحبه معه في القراءة وحتى النهاية.

---

[11] – المرجع السابق نفسه.

[12] – انظر المرجع السابق نفسه.

[13] – ديوان سميح القاسم، المصدر السابق، ص 66. ومن الجدير ذكره الإشارة إلى أنَّ سميح القاسم تأثر في قراءته أسطورة " أنتيجونا" بمسرحية سوفوكليس " أوديبوس في كولونا". انظر نصَّ هذه المسرحية في: سوفوكليس: من الأدب التمثيلي اليوناني، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، ط3، 1981، (ص ص 255–329).

أسطورة " نايوبي":

هذه الأسطورة كانت عنوان قصيدة سميح القاسم "ابن نايوبي الأخير"[14]. وكما فعل في قصيدة "أنتيجونا" وضع الكاتب عتبة نصيَّة قبل نصِّ قصيدته تحدَّث فيها عن أسطورة "نايوبي". وهذا يدلُّ على أنَّ الشاعر قرأ أسطورة "نايوبي" الإغريقية، ووعى أبعادها وإيحاءاتها والرموز التي تحملها.

تقول العتبة النصيَّة: «".. وحين سمعت نايوبي، ملكة طيبة، بمصرع أبنائها السبعة وبناتها السبع انتحبت وأغربت في النحيب، حتى رثى لحالها زفس كبير الآلهة وجعلها تمثالاً من الصخر، تسحُّ من عينيه الدموع .." ويواصل شاعر الربابة هذه الحكاية فيروي أنَّ ابن نايوبي السابع كان قد جُرح ولم يمت. وحين استعاد عافيته نذر نفسه للكفاح ضدَّ الغزاة المعتدين حتى ترضى عنه الآلهة جميعاً، وتعود الحياة إلى أُمه وتجفُّ دموعها إلى الأبد ..»[15].

وهو بهذا قد هيَّأ متلقيه لاستقبال ما سيقوله له.

منذ مطلع القصيدة يعلن الشاعر أنَّ موته كان كذباً. وأنَّ كلَّ المزاعم التي قيلت في موته سقطت. إنَّه لم يمت، بل جُرح، وتُرك وحيداً ينزف، وقد تخلَّى عنه الجميع:

سقطتْ كل الأسانيد التي تزعم موتي
والذين احترفوا القول بأن الموت أجدى
عندما فاجأتهم في اللحظات اليائسة

---

[14] – نُشرت هذه القصيدة أول مرة في مجلة الآداب، بيروت، العدد 10، 1 أكتوبر عام 1970، (ص ص 6–7). ثمَّ أُعيد نشرها في الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم، الجزء الثاني، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1993. (ص ص 123–130).

[15] – القاسم، سميح: قصيدة " ابن نايوبي الأخير"، الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص 123. وانظر كذلك هذه الأسطورة في عثمان، سهيل، والأصفر، عبد الرزاق، معجم الأساطير اليونانية والرومانية، المصدر السابق، ص 429 وما بعدها. وانظر كذلك سلامة، أمين: معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)، ط2، 1988، ص 309.

هُرعوا في عريهم،
صوب نتوء البحر أو صوب نتوء اليابسة
ووحيداً تركوني
وجريحاً تركوني
نازفاً في عقر بيتي!
سقطتْ كل الأسانيد التي تزعم موتي
وأنا ألغيتُ، ألغيتُ السفر

إنَّ ما أصابه اليوم من انتكاسة لن يدوم طويلاً، وإنَّ موته لم يحن موعده بعد فما زال في عنفوان شبابه وقوته:

سقطتْ كلُّ الأسانيد القديمه
والأسانيد الجديده
والتي يُضمرها مستقبل الرقص على أنقاض أهلي،
فارحلي مركبة الموت بأحبابي النيام
لم يزل جفني كحدِّ السيف مسلولاً،
وفي قبضة تاريخي اللجام!
اقلعي عني .. فهل تنتظرين
غير هذا الدَّم .. إكليلاً لأحبابي النيام؟
اقلعي مركبة الموت، فما زلتُ فتيا،
وجميلاً .. وقويا!
وإذا استنزفني الحزن، ولبَّيتُ جبالي
صاعداً من أسفل الوادي،
وقد صارت شراييني حبالي،
ستعودين، تعودين، وألقاك بإكليل جديد

يوم يستقطبنا الموتُ،
أنا الباقي .. وأمي الملكه!
قد تُحجم السماء عن المطر، وقد يعطش الناس، ويجوعون، ويموتون جوعاً، ويبكي بعضهم، لكنهم لم ييأسوا، ولا بدَّ أن يسقط المطر، وسينهضون من قلب المأساة ليقاوموا:
كان أنَّ المطر الطيِّب لم ينفذ إلينا
من سحابات الدخانِ العاقرِ
فعطشنا ذات عام .. وبكينا
لنهار ماطرٍ
وأكلنا طيلة الأعياد، من خبز المآتم ..
كان أنَّ الخبز لم يكفِ .. فماتوا وبكينا
غير أنَّا ما انتهينا،
ونهضنا لنقاوم!
ويكون المطر القادم .. خيراً
ذات عام
يغسل الدمع، ويمحو عن تضاريسي البعيده
لعنة الظل الذي ضخَّم أبعاد الجسد
وأكاذيب الجريده!

الشاعر هنا يريد أن يخاطب كلَّ مُشكِّكٍ بجدوى النضال والمقاومة، ويخاطب أولئك المتخاذلين، المُحبَطين، اليائسين من مقاومة المحتل، الغاصب أرضهم. يقول لهم جميعاً إنَّه لن يستكين، ولن يهدأ، ولن يستسلم، وإنَّما سيقاوم. والعدو المحتل لن يثنيه عن عزيمته وإصراره على المقاومة. ويرى أنَّ انتصارات العدو انتحار له:

عرفوا أني شربْتُ البحر من قبل قرون
ولهذا، لا أزال

ظامئاً منذ قرون
ولهذا .. أبداً يجتنبون
ساحة الحرب السجال،
ولهذا، فأنا أبصرهم ينتحرون
عندما ينتصرون !

وكما فعل الأعداء حين هاجموا مدينة طيبة، وقتلوا أبناء نايوبي، فإنَّ موتهم ولَّد حياةً جديدةً، فها هو أحد أبناء نايوبي يعود وينتقم ويثأر لإخوته وأخواته، ولأمِّه، ويعيد لها الحياة:

يوم شجُّوا باب طيبه
عمرتْ قلبي قلوب الآلهه
وعلى أهداب أحبابي النيام
والشفاه الوالهه
فتحت لي بابها السرِّيِّ طيبه
فلتقمْ قائمة الريح الغريبه
ولتمارس موتها الريح الغريبه
موتها القادم من تمثال أمي
عندما يغرزُ وردَ الدمع،
في عروة لحمي!

ويخاطب أحبابه الذين يئسوا وتخلُّوا عن القضية أن يعودوا، وأن ينهضوا ويقاوموا وأن يُثبتوا أنَّهم أبناء هذا الوطن الحقيقي الذي يناديهم للدفاع عنه ويثأروا لأنفسهم ولدماء من سقطوا على ترابه، والشاعر موجود ينتظرهم ويمدهم بالقوة والعزيمة:

شرفةٌ جرحي ..
وما زال جوادي،

صاهلاً في ظلها القاتمِ، ما زال
وسيفي وتواريخي وأطلالي، تنادي
يا أحبائي الذين انتثروا
كالنرد من كفِّ مُقامرْ
أقبِلوا
كلُّ زمانٍ وله رمحُ نبيٍّ
وانهضوا
كلُّ زمانٍ وله سيفُ مغامر
يا أحبائي .. وتبقى المسألة
أن تكونوا مرةً .. أو لا تكونوا!
شرفةٌ جرحي،
وأسراري تنادي
من نهايات منافيَّ، ومن بدء بلادي :
رفعَ الموتُ ذراعيه بباب المعجزه
ووراء المعجزه
تكثر الأسماء .. لكن المسمى
وطنٌ!
يغمره الظلُّ الذي ضخَّم أبعاد الجسد
وأساطير الجريده!
ها أنا أختمُ أيام الإجازه
بعد آلام رحيلي الخارجيِّ
ورحيلي الداخليِّ
رقَدِتْ خلفي المفازه،

نازلتني، وتغلَّبْتُ عليها
عارياً .. إلَّا من الميراث والدَّم .. تغلَّبْتُ عليها
فاشهدوني صاعداً .. منها إليها!

ويعيد الشاعر مخاطبة المترددين، الخائفين، المُشكِّكين بما يملكون من قدرات لمواجهة عدوهم. ويكرر لهم أنَّ موته كذب، وأنَّه لا يزال يحمي الوطن بما لديه من قوة وعزيمة، وأنَّ موته عصي، وصعب المنال، فهو كابن نايوبي الذي استعصى عليه الموت، وأنَّه مثله نذر نفسه لإخوته ووطنه، وأنَّ موته– إن حصل– سيحيي الموتى، ويعيد لهم الحياة من جديد. وأنَّ أمه ستفرح به، وتعود البسمة إليها من جديد:

لم أَمُتْ ..
أنباؤهم كاذبةٌ،
كنتُ جريحاً،
وشراييني إلى الأشجار والطين انتمتْ
لم أَمُتْ .. كنت جريحاً
وجراحي التأمتْ!
يا أحبائي،
أنا سيف الخفاره
وأنا صوت الخفاره
فاسمعوني .. وافهموني ..
نظرة للخلف .. يا أهلي،
ولا شيء، سوى أعمدة الملح،
وقنديل الحضاره،
وابن نايوبي الذي استعصى على الموتِ
أنا الناذرُ والمنذورُ والنذرُ،

لترضى الآلهه
ولترضى زُرقة الموت على أفواه أهلي الوالهه
ويكفُّ الدمعُ عن أهداب أمي الملكه
بعد أن أسقطَ عنها،
قشرة الصخر وليل الكارثه!

مما سبق نلاحظ أنَّ الشاعر استخدم أسطورة "نايوبي" كاملة، وقاربها من الواقع الذي يحياه هو، ويحياه الشعب العربي الفلسطيني. وهو يشبه هنا ابن نايوبي الذي استردَّ عافيته من إصابته المميتة وأخذ ينتقم من أعدائه كما فعل ابن نايوبي بأعدائه وأعاد البسمة لأمه، بل أعادها للحياة. إنَّ العودة من الموت هنا تحمل أبعاداً رمزية قوية قصدها الشاعر واستهدفها بتوظيف أسطورة " نايوبي" واستلهام ما فيها من عبر ودلالات ليقول إنَّه لا لليأس، ولا للقنوط والتخاذل، وإنَّما الأمل موجود، وطريق النضال طويل، وإنَّ النصر لا بدَّ أن يحققه كلُّ مؤمن بعدالة قضيته، مهما طال الزمن، أو تعرَّض لانتكاسات أو معيقات، وإنَّ فلسطين ستبتسم وتفرح وتعود لها الحياة كما عادت البسمة لنايوبي ودبَّت فيها الحياة من جديد بعد انتصار ابنها وانتقامه من أعدائه.

إنَّ أهم الرموز في هذه القصيدة هو تماهى الشاعر مع كلِّ مقاومٍ على أرض فلسطين، فصوته هو صوت جميع المقاومين، ولئن جُرح، فهذا الجرح عارض، لن يدوم كثيراً، ربما الجرح هنا يعني الانتكاسة، التوقف لفترة من الزمن، لكنه سيضمِّدُ جراحه، ويستعيد قوته، كما فعل ابن نايوبي الذي نهض من موته، لينتقم من أعدائه، وليثأر لجميع إخوته، وليعيد البسمة إلى وجه أمِّه.

فابن نايوبي هنا هو الشاعر نفسه، أو هو كلُّ مقاوم على أرض فلسطين، بل هو الشعب الفلسطيني نفسه الذي نهض ليدافع عن وطنه وكرامته المسلوبة. ونايوبي التي أصبحت صخرة، هي أمُّ الشاعر، وأُمُّ كلِّ مقاوم، بل هي فلسطين نفسها التي جعلها العدو الصهيوني

ذابلة، شاحبة، ذليلة، مات كلُّ ما فيها من حياة. وبانتصار ابن نايوبي– الشاعر، الشعب الفلسطيني ومقاومته، وانتقامه وثأره، ستعود الحياة ثانية لنايوبي– لفلسطين.

ثانياً: الأساطير التي استُعملت جزئياً في القصيدة:

في هذا النوع من الأساطير لا يهتم الشاعر بالأسطورة نفسها أو الجزئية التي اختارها. وإنما يكتفي "بذكرها في سياق تكون فيه، محصِّلة لمجموعة من المقدمات، أو لمجموعة من الصور أو الرموز أو تكون لبنة تضيف أو توضِّح شيئاً ما في القصيدة"[16].

والشاعر هنا يتناول من الأسطورة ما يراه مناسباً من معان وإيحاءات تخدم غرضه وقصيدته. وهو لا يغوص في تفصيلات الأسطورة وجزئياتها لاستخراج إيحاءات جديدة، " فأوليس مثلاً رمز الضياع، وسيزيف رمز للعذاب الدائم، وإيكاروس رمز للتوق الشديد للحرية"[17]، وبروميثوس رمز للتحدي والعذاب، وأخيلُّووس رمز الأنين والحزن والحقوق المسلوبة، وأفروديت رمز للجمال.

ويُمثِّل هذا النوع من الأساطير القصائد الآتية: (خطاب في سوق البطالة، جُنَّاز في ثلاثاء الرماد، إلهي لماذا قتلتني؟، كولاج 1).

وسنُمثِّل على هذا النوع بقصيدة "خطاب في سوق البطالة" التي نُشرت عام 1967. وفيها يعرض الشاعر الواقع الفلسطيني تحت سيطرة الاحتلال الصهيوني الغاصب لأرضه، الساعي لسلب كلِّ شيء يملكه الشعب الفلسطيني، ومحو هويته العربية الفلسطينية بالقوة والعنف.

وقد عمد الشاعر إلى عرض أفكاره عبر هذه القصيدة من خلال أربعة مقاطع. وكلُّ مقطع فيها يقود إلى المقطع الآخر بسبب. ومحور القصيدة من أولها إلى آخرها يتمثَّلُ في اللازمة التي ختم بها كلَّ مقطع من مقاطع قصيدته، وهي: أنه لا مساومة مع عدو

[16] – غنيم، غسان: الأسطورة والحكاية الشعبية في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، دار العائدي، دمشق، 2008، ص 83.

[17] – المرجع السابق نفسه.

الشمس والإنسانية، وأنَّه سيقاوم حتى آخر رمق، ونبض في عروقه. وقد رمز في ذلك كلِّه إلى العدو الصهيوني.

في المقطع الأول من القصيدة يتحدَّث الشاعر باسمه هو، وباسم كلِّ فلسطيني أنَّ لديه الاستعداد أن يفعل أيَّ شيءٍ، أن يُذلَّ ويُهان، وأن يجوع لكن لن يستسلم أو يلين أو يساوم عدوه وعدو الحرية والنور والسلام "عدو الشمس"، وسيقاومه حتى آخر قطرة من دمه.

وفي المقطع الثاني يصرُّ الشاعر على موقفه من عدوه الغاصب، ويُبيِّن له قدرته على التحمل والصبر لما يقوم به من وحشية وقسوة وظلم وإهانة وطمس معالم فلسطين وهويتها. ومع هذا فإنَّ الشاعر الذي يُمثِّلُ صوتُه صوتَ كلِّ فلسطيني لن يساوم عدو الشمس، بل يصرُّ على مقاومته بشجاعة.

وفي المقطع الثالث من القصيدة يتابع الشاعر ما قد يفعله العدو به وبشعبه، من موت، وتشريد وتهجير في بقاع الدنيا، التي لا يرحمُه أهلُها من إذلال وإهانة، وشتائم، أو حرمان أطفال فلسطين بهجة العيد، أو تشويه صورة فلسطين وشعبها، أو ما قد يفعله هذا العدو من حصار، وتجويع. والشاعر ومعه كلُّ فلسطيني لن يساوم عدو الشمس وعدو الحرية، بل يصر وبعزيمة وإباء على المقاومة.

ويصل الشاعر إلى المقطع الرابع والأخير من قصيدته. وفيه يخاطب العدو الصهيوني وجهاً لوجه، غير خائف، أو متردد، وإنَّما بإيمان راسخ وعزيمة وإصرار على الثبات على المبادئ التي آمن بها: "يا عدو الشمس!" التي تحمل الوعيد والتهديد، وتزلزل الأرض تحت قدمي عدوه. بل يردفها بما سيشهده العدو من رعب وخوف ساعة وصول العائدين من البحار البعيدة. فوصولهم إلى أرض فلسطين سيحمل الخير والنصر لهذه البلاد وشعبها. فالأمل معقود على أولئك الذين يعتلون شراع العودة، مجتازين البحار، متحدِّين بأشرعتهم الرياح العاتية، وأمواج البحر العالية، وكل المخاطر التي تقف دون وصولهم وعودتهم إلى فلسطين لمقاومة مغتصبها ومُشَرِّد أهلها، وعودتهم تشبه عودة يوليسيز ومغامراته في سبيل الوصول إلى وطنه، وزوجته، وأبيه، وابنه، ومع هذا الأمل المنتظر،

وتلك البشائر يقف الشاعر مردِّداً للمرة الرابعة أنَّه لن يساوم، وأنه سيقاوم حتى آخر حياته:

يا عدو الشمس ..
في الميناءِ زيناتٌ، وتلويحُ بشائر ..
وزغاريد، وبهجه
وهتافاتٌ، وضجه
والأناشيدُ الحماسيَّةُ وَهْجٌ في الحناجر
وعلى الأفقِ شراع ..
يتحدى الريح .. واللُّجَّ .. ويجتاز المخاطر ..
إنها عودة يُولِيسِيز
من بحر الضياع ..
عودةُ الشمس، وإنساني مهاجر
ولعينيها، وعينيه .. يميناً .. لن أساوم ..
وإلى آخر نبضٍ في عروقي ..
سأقاوم ..
سأقاوم ..
سأقاوم !!..[18]

"خطاب في سوق البطالة" هي قصيدة المقاومة، قصيدة الإصرار والثبات، والعزيمة والإرادة الصلبة في وجه العدو المحتل لأرض فلسطين. والشاعر فيها اعتمد أسلوباً متميزاً في عرض ما أراده من أفكار وصولاً إلى الغاية التي رمى إليها؛ وهي الإيمان: أنَّه لا مساومة مع من احتلَّ، وقتل، واغتصب، وسلب، وشرَّد، وهجَّر، ويتَّم، وثكَّل. وأنَّ السبيل للردِّ عليه لن يكون إلَّا بالمقاومة، وبالمقاومة فقط، وهذا الشعار القديم المتجدد

[18] – ديوان سميح القاسم، المصدر السابق، (ص ص 447–450).

الذي آمن به كلُّ فلسطينيٍّ أبيٍّ عزَّ عليه أن يُهان وطنه أمام عينيه، ويُدنَّس ترابه بأقدام معتدين غرباء، لا يحملون في نفوسهم أيَّ حسٍّ من الإنسانية.

وقد عمد الشاعر إلى تقديم أفكار قصيدته في لوحة فنية عامرة بالصور الحية، الغنية بالدلالات والمعاني والرموز. فكلُّ جزء من هذه اللوحة يستوقف المتلقي ويدعوه إلى التأمل ويقوده إلى ما بعده من أجزاء اللوحة العامرة بالجديد من أفكار وصور ودلالات. معمقاً في كلِّ مرة إحساس المتلقي درجة بما يعرضه عليه، فكأنَّ المتلقي يشاهد بأمِّ عينيه ما يحصل على الأرض الفلسطينية، وما يعانيه الشعب الفلسطيني من العذاب والألم، والقمع، والقهر.

إنَّ المقطع الأخير من القصيدة هو تتويج لما عرضه الشاعر، وهو الغاية التي رمى إليها من قصيدته. فهو يحمل كثيراً من التهديد والوعيد لعدوه وعدو الشمس، عدو الحرية والنور والسلام. مستمداً ذلك كله من رمزية الشخصية الأسطورية الإغريقية "يوليسيز". ودلالات هذه الشخصية والإيحاءات التي تحملها معروفة في التراث الإغريقي والعالمي. فـ "يوليسيز" المعروف بالإغريقية "أوديسيوس" هو بطل ملحمة "الأوديسة" لهوميروس، وهو بطل معركة طروادة، والمنتصر في هذه المعركة. والذي شهد في أثناء عودته إلى موطنه إيثاكا الكثير من الصعاب والأهوال، كما تعرَّض للضياع في البحر سنوات كثيرة. وقد استمرت رحلة عودته عشر سنوات، ومن قبلها عشرين سنة ما بين الاستعداد لحرب الطرواديين، وحصار طروادة. وبعد عناء طويل عاد إلى مملكته إيثاكا، واستعاد ملكه من الطامعين بمُلكه وزوجته، وعاد إلى زوجته الوفية بينيلوبي، التي بقيت طوال غيابه تنتظره صابرة، ومتحملة مضايقات الخُطَّاب الكثيرين الطامعين بها وبمُلك زوجها.

هذه الشخصية الأسطورية كانت رمزاً قوياً في قصيدة سميح القاسم "خطاب في سوق البطالة". وقد وظَّفها الشاعر لما فيها من إيحاءات ودلالات كثيرة. فـ "يوليسيز" يرمز إلى الفلسطينيين الذين هُجِّروا من وطنهم فلسطين، وتشردوا في بقاع الأرض، تائهين، ضائعين سنوات طويلة، يحدوهم الأمل في الرجوع إلى وطنهم وتخليصه ممن اغتصبه

ودنَّسه. و"بينيلوبي" الوفية لزوجها "أوديسيوس" وحبها له، هي رمز الشعب الفلسطيني المتشبِّث بأرضه، الذي رفض الخروج منها على الرغم من تكالب الطامعين بها. والطامعون من الأمراء بـ "بينيلوبي" وبمُلكِ زوجها يرمزون إلى الصهاينة الذين جاؤوا من كلِّ مكان طمعاً بفلسطين، وبغناها التاريخي والجغرافي وقداستها الدينية. في حين ابنهما تليماخوس الذي كان يبحث عن والده وينتظر عودته بلهفة ليتخلَّصا معاً من أولئك الخُطَّاب الطامعين بأمه، وملك أبيه، والذين عاثوا فساداً وعهراً ونهباً في قصر أبيه. تليماخوس هنا يرمز إلى الجيل الجديد من الشعب العربي الفلسطيني، الذي ينتظر عودة المهجَّرين من الفلسطينيين ليشدَّ أزره بهم ويقاتلوا جميعاً عدوهم، وعدو آبائهم، وأجدادهم، ويحرروا فلسطين ويطهروها من رجسهم وليعود الأمن والسلام لهذه الأرض السليبة.[19]

[19] – تجدر الإشارة هنا إلى أنَّه لم تغب عني تلك الدراسات التي تناولت قصيدة "خطاب في سوق البطالة" لسميح القاسم. من مثل:

– مُقْبِل، على أصغر قهرماني: جماليات التكرار في قصيدة (خطاب في سوق البطالة) لسميح القاسم، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، إيران، العدد العاشر، صيف 2012، (ص ص 47–66).

– بوجمعة، بومدين: ظاهرة التكرار في الشعر السياسي التحرري، دراسة أسلوبية لقصيدة خطاب في سوق البطالة لسميح القاسم نموذجاً، مجلة سيميائيات، المجلد 17، العدد 2، مارس 2022، (ص ص 729–741).

– عليوي، سامية: ملامح أسطورية في شعر سميح القاسم، مجموعة " دمي على كفي" أُنموذجاً، حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، الصادرة عن جامعة 8 ماي 1945، قالمة (الجزائر)، العدد 15، جوان 2016، (ص ص 273–299).

وقد وجدتُ أنَّ مثل هذه الدراسات لا تقدِّم كثيراً من الفائدة لبحثي، والسبب في ذلك أنَّ دراستي الدكتور مُقْبِل وبومدين تتناولان القصيدة من الناحية الأسلوبية والبلاغية. أمَّا دراسة الدكتورة سامية عليوي فهي في صلب الموضوع الذي أتناوله هنا بالدراسة. إلَّا أنَّ هذه الدراسة تفتقر إلى وعي الأسطورة الإغريقية، أي أسطورة أوديب في التراث الإغريقي. فالكاتبة، على الرغم من جهودها المبذولة في دراستها، لم تكن موفقة في قراءة الأسطورة الإغريقية. فإذا كانت المقدمات خاطئة، فإن النتائج التي تنتهي إليها لا بدَّ أن تكون خاطئة حتماً. ومثال على ذلك وقوع الكاتبة في عدة أخطاء، من ذلك مثلاً:

– أنَّ خروج يوليسيز من وطنه كان لدرء العدوان عن مملكته. والأسطورة لا تقول ذلك.

– أنَّ رحلة يوليسيز في البحر وضياعه فيه استمرا عشرين عاماً. وهذا خطأ آخر ليس في الأسطورة.

– أنَّ الشاعر سميح القاسم عاش في وطنه حالة نفي. والواقع ليس كما تذهب إليه الباحثة.

ثالثاً: الأساطير المُلْهِمة:

وهي تلك الأساطير التي لم يصرِّح الشاعر بها في قصائده، وإنَّما فيها بعض الإشارات والتلميحات التي يدركها القارئ الواعي، الملمُّ بالأساطير الإغريقية، ويستشعر وجودها ويتبيَّنُها من الجوِّ العام للقصيدة، والأفكار التي يأتي الشاعر عليها في قصيدته. وتتمثَّل هذه الأساطير في قصائده (من أجل، البحث عن الجنة، تعب المعادن، إعلان نوايا). وكمثال على هذا النوع من الأساطير المُلْهِمة نتوقف عند قصيدة "من أجل" التي نُشرت في عام 1964. يقول الشاعر في هذه القصيدة:

من أجل صباح!
نشقى أياماً وليالي
نحمل أحزان الأجيالِ
ونُكوكبُ هذا الليل جراح!
من أجل رغيف!
نحمل صخرتنا في أشواك خريف
نعرى .. نحفى .. ونجوع
ننسى أنَّا ما عشنا فصلَ ربيع
ننسى أنَّا ..
خطواتٌ ليس لهنَّ رجوع !![20]

في هذه القصيدة لا نرى ذكراً لأيِّ أسطورة من الأساطير الإغريقية، وإنما نقرأ السطر "نحمل صخرتنا في أشواك خريف". وحَمْلُ الصخرة يحيلنا مباشرة إلى "سيزيف" في الأسطورة الإغريقية التي تقول إنَّ سيزيف كان غير مؤتمن على الأسرار الإلهية وأوامرها؛ فقد خالف أمر زيوس حين خدع الموت وقيده في مملكة الجحيم حين أرسله زيوس إلى هناك. وبسبب هروبه من الجحيم. فقد لقي أخيراً عقابه الأبدي حين "حكمت

[20] – ديوان سميح القاسم، المصدر السابق، (ص ص 114–115).

عليه الآلهة بأن يدفع في الجحيم صخرة كبيرة إلى أعلى جبل حتى إذا قاربت القمة عادت إلى الأسفل ليستأنف سيزيف دفعها من جديد. وقد كُتبت عليه هذه العقوبة حتى لا يبقى لديه فراغ يفكر فيه بحيلة أو جريمة جديدة"[21].

إذن، سيزيف يمثِّل العذاب والألم الإنساني المستمر في الحياة. وقد وجد الشعراء في أسطورة سيزيف رمزاً قوياً للتعبير عن معاناة الإنسان وعذابه. وسميح القاسم واحد من هؤلاء الشعراء الذين وجدوا في أسطورة "سيزيف" معادلاً موضوعياً لمأساة الشعب الفلسطيني. وقد وظَّف سميح القاسم هذه الأسطورة في ثلاثٍ من قصائده، هي: (من أجل، كولاج 2، أشدُّ من الماء حزناً). وفي القصيدتين الأخيرتين يذكر الشاعر اسم "سيزيف" صراحة. أمَّا في قصيدة "من أجل"، فشخصية "سيزيف" مغيبة كلياً، لكنها مضمرة في "صخرتنا"، والصخرة تحيلنا إلى "سيزيف" وإلى الأسطورة كلها.

وفي هذه القصيدة يريد الشاعر أن يتحدَّث عن مأساة الشعب العربي الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني، وما يعانيه من شقاء وأحزان، وآلام، وتجويع، وقهر. وأنَّ هذا الشعب مصرٌّ على مقاومة هذا العدو وظلمه بالصبر والتحمل، وهما الوسيلتان المتوفرتان لديه في هذه المرحلة من مراحل النضال. فلا يهمهم ما يعانونه من شقاء في سبيل صباح يشرق عليهم بالتحرر والخلاص، ولا يهمهم أن يحملوا الصخرة من أجل رغيف خبز، ولا يهمهم أن يكونوا حفاة عراة جائعين، المهم أنَّهم يقاومون بصبرهم وتحملهم عدواً لا يرحم، ولا ينتمي إلى الإنسانية في شيءٍ. وفي صبرهم يكمن انتصارهم، وفي حملهم الصخرة يكمن التحدي الحقيقي، وفي فقرهم وجوعهم يكمن الإصرار والعزيمة على أن يظلوا مؤمنين بزوال الظلم ومجيء يوم يتحررون فيه من مغتصب حقوقهم وأرضهم.

ولئن كانت أسطورة "سيزيف" ترمز إلى العذاب والألم والضعف وعبثية الوصول إلى تحقيق الأهداف والغايات، أو استحالتها، فإنّهَا ترمز من وجه آخر إلى التحدي والمواجهة

[21] – عثمان، سهيل والأصفر، عبد الرزاق: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، المصدر السابق، ص 299 وما بعدها.

والإصرار، والثبات وعدم اليأس. أو"الانتصار" كما يقول ألبير كامو[22]. إنَّ سيزيف يتحمل العذاب اليومي. لكنه مصرٌّ ومصممٌّ على إيصال الصخرة إلى قمة الجبل. قد يبدو عمله هذا عبثياً وغير مجد، لكنه من الجانب الآخر للصورة يحمل دلالات إيجابية أخرى، فهو يعني أنَّه يريد أن يثبت لمعاقبه (الآلهة) أنَّه موجود، وليس خائفاً، ولم يصبه اليأس، ولن يصيبه اليأس، ما دام يؤمن بقوته وقدراته، ولن يستسلم لقدره أو يضعف، ما دام لم يفقد الأمل بعد في الوصول يوماً بصخرته إلى قمة الجبل. وكذلك الشعب العربي الفلسطيني كان صابراً على مواصلة التحمل والصبر في كلِّ يوم، غير فاقد الأمل. لكن جهوده مبعثرة، غير منظمة، وما عليه إلَّا أن يُنظِّمَها ويُوجِّهَها نحو الهدف الأساسي في صراعه مع عدوه الصهيوني. وهذا ما أدركه سميح القاسم وأشار إليه في قصيدته "أشدُّ من الماء حزناً" حين قال:

أتعرفُ؟ أخطأتَ حين قرأتَ الحياة بحبِّك
وأخطأتَ حين رأيتَ الوجود بقلبك
ولا. لا تقل لي البصيرة. للمرء عينان
والقلب واحد
فكيف تجيدُ حساب المواجد؟
وكيف تحبُّ كما ينبغي أن تحبَّ؟ ومن لا يرى يتعثَّر
في تعتعات الرؤى وشعاب المقاصد
فجاهد. كما ينبغي أن تُجاهد!
تأمَّل بعينين مفتوحتين وقلب بصير.
تأمَّل. وكابد!
كما ينبغي. لا تُكرِّر حماقة سيزيف! قف

[22] – انظر كامو، ألبير: أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983، ص 140.

في أعالي العذاب. تأمَّل. وراجع
وطالع. وتابع.
وشاهد!
وصارع.
حزيناً. قوياً كصمت المعابد
حزيناً. أشدُّ من الماء حزناً.[23]

الخاتمة:

يلاحظ مما سبق أنَّ الأسطورة عامة، والإغريقية خاصة، كانت جزءاً مكملاً ومتمماً لتشكيل رؤية سميح القاسم الشعرية، ورسالته بصفته شاعراً وإنساناً. وأنَّ الشاعر استمدَّ من الأسطورة الإغريقية كثيراً من الأفكار التي تتلاقى مع الأفكار والقضايا التي عالجها في شعره. وقد بلغت هذه الأساطير التي تأثَّر بها ووظَّفها واستلهمها في شعره اثنتي عشرة أسطورة[24]. وفيها جميعاً يدرك القارئ إلمام الشاعر الكبير بالأسطورة الإغريقية ودلالاتها وأبعادها والرموز التي تحملها. وهو حين يُقدِّمها في شعره توظيفاً، أو استلهاماً، إنَّما يقدِّمها بطريقة جديدة تنمُّ عن مقدرة فنية عالية، ورؤية شعرية تدرك أبعاد ما توظِّفه وتستلهمه، وما يريد الوصول إليه غاية وهدفاً. ومن هنا يمكن لنا أن نُحدِّد أبرز سمات الأسطورة الإغريقية في شعره:

1. استخدام الأسطورة الإغريقية بأشكال وطرق فنية مختلفة؛ فقد جاء بعضها عنواناً رئيسياً لقصائده، مثال ذلك: (أنتيجونا، إسكندرون، نايوبي، أتلانتس، هيرمافروديتُّوس). وجاء بعضها جزئياً في قصائده، مثال ذلك: (يوليسيز، سيزيف،

[23] – القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسربيات أخرى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2005، ص 30.

[24] – لم أتمكن من دراسة هذه الأساطير جميعها نظراً لضيق المجال، ولأنَّ بعض القصائد التي وظَّفت الأساطير فيها كانت طويلة جداً، ويحتاج كلٌّ منها دراسة مستقلة. مثال ذلك: "إسكندرون في رحلة الخارج ورحلة الداخل"، "ملك أتلانتس"، " هيرمافروديتُّوس".

إيكاروس، برومثيوس، أخيلُووس، أفروديت). وبعضها الآخر جاء استلهاماً وتلميحاً ومثالها: (سيزيف، برومثيوس).

2. من سمات توظيف الأسطورة الإغريقية واستلهامها في شعر سميح القاسم التكرار. فالشاعر يعمد في شعره، أحياناً، إلى تكرار استخدام أسطورة واحدة في غير قصيدة، ولكن بطريقة ورؤية جديدة. وإنَّ دلَّ هذا على شيءٍ، فإنَّما يدل على أنَّه كان يقرأ الأسطورة ودلالاتها وإيحاءاتها قراءة جديدة، وبما يخدم الأفكار والقضايا التي يعالجها ويناقشها ويرمي إليها.
3. إسقاط الأسطورة الإغريقية، أو مقاربتها من الواقع الذي يتحدَّث عنه. وهو هنا القضية الفلسطينية بكلِّ أبعادها النضالية.
4. معظم الأساطير التي يوظِّفها الشاعر ويستلهمها تتداخل وأفكاره وتمتزج بها بحيث تغدو نسيجاً واحداً على مستوى الرؤية الفنية والشعرية.
5. الانزياح في معنى الأسطورة التي يوظِّفُها في شعره. بمعنى أنَّه كان ينمِّي أبعاد الأسطورة ويغنيها بمعان جديدة وبما يخدم رؤيته الشعرية والموضوع الذي يطرقه.
6. لجوء الشاعر في بعض قصائده التي حملت اسم الأسطورة إلى استخدام العتبات النصيَّة. فأهمية هذه العتبات تكمن في الكشف عن تأثر الشاعر بالأسطورة الإغريقية وما قرأ عنها، وكيفية توظيفها وتقديميها للمتلقي في قصيدته.
7. تحمل الأساطير الموظَّفة في شعر سميح القاسم الأمل والتفاؤل، والدروس والعبر الكثيرة المتعلِّقة بحياة الإنسان الباحث دائماً عن الطمأنينة والسلام والمحبة، وسبر أغواره والكشف عن القدرات الكامنة فيه واستثمارها لمواجهة ما يعترضه من صعوبات والتغلب عليها.

المصادر والمراجع:

1– إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي (القاهرة)، ط3، د.ت.

2– أمين، أحمد، ومحمود، زكي نجيب: قصة الأدب في العالم، (الجزء الأول: في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1943.

3– سلامة، أمين: معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)، ط2، 1988.

4– سوفوكليس: من الأدب التمثيلي اليوناني، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، ط3، 1981.

5– عبد العزيز، كارم محمود: أساطير العالم القديم، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1، 2007.

6– عثمان، سهيل، والأصفر، عبد الرزاق: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982.

7– عكاشة، ثروت، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، 1990.

8– غنيم، غسان: الأسطورة والحكاية الشعبية في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، دار العائدي، دمشق، 2008.

9– القاسم، سميح: ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، 1973.

10– القاسم، سميح: الأعمال الكاملة للشعر سميح القاسم، الجزء الثاني، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1993.

11– القاسم، سميح: ملك أتلانتس وسربيات أخرى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2005.

12- كامو، ألبير: أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983.
13- المصري، حسين مجيب: الأسطورة بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2000.
14- هوميروس: الإلياذة، ترجمة أحمد عتمان وزملاؤه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008.

المجلات والدوريات:

1- بوجمعة، بومدين: ظاهرة التكرار في الشعر السياسي التحرري، دراسة أسلوبية لقصيدة خطاب في سوق البطالة لسميح القاسم نموذجاً، مجلة سيميائيات، المجلد 17، العدد 2، مارس 2022، (ص ص 729-741).
2- عليوي، سامية: ملامح أسطورية في شعر سميح القاسم، مجموعة " دمي على كفي" أُنموذجاً، حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، الصادرة عن جامعة 8 ماي 1945، قالمة (الجزائر)، العدد 15، جوان 2016، (ص ص 273-299).
3- القاسم، سميح: " ابن نايوبي الأخير"، مجلة الآداب، بيروت، العدد 10، 1 أكتوبر عام 1970، (ص ص6-7).
4- مُفْبِل، على أصغر قهرماني: جماليات التكرار في قصيدة (خطاب في سوق البطالة) لسميح القاسم، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، إيران، العدد العاشر، صيف 2012، (ص ص 47-66).

المواقع الإلكترونية:

1- منصور، مروى فتحي: التناص الأسطوري في شعر سميح القاسم/ نماذج مختارة من شعره، الموقع الإلكتروني: موقع الوديان: http://wdian.org/.
2- موقع القدس العربي الإلكتروني: https://www.alquds.co.uk/.